أوسكار وايلد

من الظواهر المألوفة فى تاريخ الفكر الإنجليزى أن المذاهب الاجتماعية ومدارس الفن تصل إلى انجلترا بعد جيل أو جيلين من ظهورها فى بلاد القارة الأوروبية . ولعل عزلة بريطانيا وراء المانش هى علة ذلك .

فرونسار والثورة على الأوضاع الأدبية فى القرن السادس عشر ظهرا فى فرنسا قبل شكسبير ومنهجه الانقلابى فى انجلترا ، والأدب الانجليزى فى تلك الفترة مدين للأدب الفرنسى بالشىء الكثير سواء فى مادته أو فى شكله . كذلك نضج ما يسميه النقاد بالأدب الكلاسى فى فرنسا قبل نضوجه فى انجلترا ، وتتلمذ درايدن على راسين وپوپ على بوالو ونقلا عنهما أصول الإنشاء التقليدى . ثم ظهر ما يسميه النقاد بالأدب الرومانسى فى فرنسا وألمانيا ومن ثم انتقل إلى انجلترا ، وتناسخ روسو فى شلى وجيتى فى وردزورث .

ولكن فى الأدب الانجليزى حركة ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر تعرف بحركة « نهاية القرن » كان عمادها أوسكار وايلد . ولم تكن هذه الحركة تياراً محلياً بل كانت كالعادة صدى لحركة مماثلة لها عند الفرنسيين . على أن هذا التيار لم يتأخر فى الانتقال كثيراً كما تأخرت التيارات السابقة فى الانتقال ، فظهرت المدرستان فى پاريس ولندن فى جيل واحد . ولعل تقدم وسائل الاتصال هو السبب فى ذلك .

فما هى المبادىء الأساسية فى أدب أوسكار وايلد ، وما علاقته بحركة نهاية القرن ، وما الخصائص التى تفرد بها إنشاؤه فجعلت فضله على الأدب مذكورا ؟

١

ولد أوسكار وايلد فى السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٥٦ بمدينة دبلين حاضرة إيرلندا لأب ذاع صيته فى طب العيون وتعددت فضائحه حتى تردد على

المحاكم بسبب صبواته ، وام تشتغل بالكتابة وتهييج الرأى العام حاولت فى شبابها أن تقنع الإيرلنديين بأن يهاجموا قلعة دبلين ويطردوا الانجليز منها . وأهم ما يعرف عن أيام حداثته فى المدرسة أنه كان يمقت الألعاب الرياضية ويجيد اليونانية ويطيل من الأحلام . وقد جنى من حبه لآداب القدماء جوائز جامعية أدخلته كلية ترينيتى بدبلين حيث تتلمذ على الأستاذ ماهافى وتأثر بدعوته إلى إحياء حضارة اليونان ، ثم كلية مودلين بأكسفورد . وفى أكسفورد تعرف وايلد على الناقد العظيم جون رسكين وهو من دعاة الثورة على الآلة والعودة إلى العمل اليدوى ، وكثيراً ما خرج وايلد مع رسكين ليصلح الطرقات لا حباً فى الطرقات ولكن حباً فى رسكين . كذلك تعرف وايلد على الناقد العظيم وولترپاتر صاحب الدعوة إلى عبادة الجمال. وقبل أن يتخرج وايلد فى أكسفورد بدأ فى تلك الجامعة حركة لإصلاح الأزياء ، وكان يقول إن إصلاح الملبس أهم للمجتمع من إصلاح الدين .

ثم انتقل إلى لندن وهناك أم ندوات الفن والأدب وخالط مشاهير رجال العصر : خالط الشاعر وليم موريس الناقم على الحضارة الآلية الداعى إلى الصناعة اليدوية ، والرسام هويسلر والممثلة الين تيرى وبرنارد شو وفرانك هاريس وسائر رجالات الأدب ودخل المجتمع الأرستقراطى فأصاب فيه نجاحاً عظيما . ولكن دخله الشخصى المحدود لم يكن يكفيه ليحيا هذه الحياة المترفة فنشر ديواناً من الشعر الردىء تلقاه النقاد ببرود وتلقاه القراء بشغف . وكان يجوب طرقات لندن فى زى عجيب يلفت الأنظار فأصبح حديث الخاص والعام وجعل الناس يقبلون على شراء ديوانه .

ولكن كل هذه كانت حلولا مؤقتة لضائقته المالية ، ولم يسعفه إلا دعوة وصلته سنة ١٨٨٢ من أمريكا ليلقى فيها سلسلة من المحاضرات بأجر لا بأس به . ثم عاد من أمريكا إلى باريس وأقام فيها وقتاً قصيراً كتب أثناءه تراجيديا منظومة لاقيمة لها تدعى « دوقة پادوا » ، ولما نفد ماله القليل رجع إلى انجلترا يجوب بلدانها محاضراً ومحدثاً . وفى ١٨٨٤ تزوج من ابنة محام تدعى كونستانس مارى لويد ، واستقر فى حى تشلسى بلندن وأنجب منها ولدين واشتغل بنقد الكتب للصحف الأدبية . ولكن موهبته الأولى وهى فن الحديث كانت تنمو مع الايام حتى اصبح وايلد أعظم محدث فى انجلترا ، بل إن من النقاد من لا يجد له

كنفوّاً فى التاريخ بين المحدثين . وقد اعترف له كل من عرفوه من أقطاب الأدب فى انجلترا وفرنسا بسحر الشخصية وخصوبة الفكاهة وطلاقة اللسان . وكان إذا تحدث مزج الهزل بالجد والشعر بالفكر والخيال بالواقع فأسر قلوب السامعين . وفى ذلك تروى حكايات لاحصر لها تثبت أن وايلد كان إمام المحدثين ، يفتن أصدقاءه ويروض أعداءه بفكاهته المشرقة وذكائه المتلألئ وقدرته على التعبير الجميل .

وتولى وايلد تحرير مجلة « عالم المرأة » مدى عامين ، واشتغل بين عام ١٨٨٥ و١٨٩٠ بوضع مجموعة من القصص القصيرة أشهرها « جريمة اللورد آرثر سافيل » والقصص الخرافية وأشهرها « الأمير السعيد » و « بيت الرمان » ، كما كتب بحثاً فى سونيتات شكسبير دعاه « صورة مستر و . هـ . » ومؤلفاً فى فلسفة الفن اسمه « النوايا » . وفى ١٨٩٠ نشر قصته العظيمة « صورة دوريان جراى » تباعاً فى مجلة ليبنكوت ثم جمعها وأضاف إليها وصدّر لها فى العام التالى وأخرجها فى صورة كتاب . وقد أحدث ظهور هذه القصة ضجة كبرى فى الأوساط الأدبية وثارت ثائرة الصحف واتهمت وايلد بأنه كاتب منحل ، ووصفت كتابه بأنه مناف للأخلاق وما هو كذلك ، فنقاد اليوم يصفون وايلد بأنه كاتب أخلاقى من الدرجة الأولى . وفى عام ١٨٩١ نشر وايلد بحثه المشهور « روح الإنسان فى النظام الاشتراكى » وقضى الشطر الأكبر من تلك السنة بباريس يكتب مسرحيته العظيمة « سالوميه » باللغة الفرنسية . وفيما كانت ساره برنار تعد العدة لإخراج هذه التمثيلية فى لندن جاء أمر السلطات بمصادرتها وتحريم إخراجها ، فأعلن أوسكار وايلد أنه سوف يهاجر إلى فرنسا ويتجنس بالجنسية الفرنسية احتجاجاً على هذه المعاملة . ولكنه لم يفعل ، ومضى فى الكتابة وظهرت على المسرح كوميدياته المشهورة « مروحة الليدى وندرمير » سنة ١٨٩٢ ثم « امرأة لا أهمية لها » سنة ١٨٩٣ ثم « أهمية أن تسمى إرنست » و « الزوج الكامل » سنة ١٨٩٥ .

وهكذا بلغ أوسكار وايلد فى عام ١٨٩٥ قمة مجده وأصاب من المال ما تمناه لنفسه ، ولكن المجد أفسده فجعله يتنكر لأصدقائه القدماء ويضيق صدراً بنصح الناصحين ويعرب عن آرائه فى معاصريه بصراحة مؤذية ، فانفض من حوله أصحابه وكثر أعداؤه وباتت حياته الخاصة مضغة فى أفواه الناس ، ولم يبق له إلا

جماعة من السفلة المتزلفين يترضونه طمعاً فى ماله . وفى العام نفسه نزلت به المحنة الكبرى التى حطمت حياته جملة ، فقد أهانه المركيز كوينسبرى واتهمه فى أخلاقه ، فلم يسع أوسكار وايلد إلا أن يرفع أمره إلى القضاء ويطلب عقاب المركيز كوينسبرى . ولكن المحاكمة انتهت بالقبض على أوسكار وايلد ، وهكذا تغير الوضع ووقف المدعى موقف المتهم ، وثبت للمحلفين شذوذه ، فصدر الحكم بحبسه سنتين مع الأشغال الشاقة قضاها بين سجن واندزويرث وسجن ردنج وذاق فيهما مرّ العذاب . ولكن الشهور الستة الأخيرة من حياته فى السجن كانت محتملة ، فقد سمح له بالقراءة والكتابة بعد أن تشفع له أصدقاؤه . وفى السجن مر وايلد بنوبة تصوف شديدة وجذبته شخصية يسوع المسيح فكتب إلى صديق له خطاباً مطولا يفيض بالتوبة نشر فيما بعد تحت عنوان « من الأعماق » بعد استبعاد ما جاء به من عبارات شخصية .

وبعد أن خرج وايلد من السجن نزح إلى برنيڤال بفرنسا ، وهناك عاش تحت اسم سباستيان ملموث ، وفيها أتم قصيدة طويلة هى « سجن ردنج » بقلم ج ٣ — ٣ وهو الرقم الذى كان يحمله أيام أن كان سجيناً . ولكن نوبة التصوف التى اعترته داخل السجن زالت عنه بعد خروجه منه ، وعاد أوسكار وايلد كما كان العابث اللاهى المقبل على أطايب الحياة ، ولم تذهب المحن بمرحه ولا بملكته على السخر بكل شىء . ويبدو أن الاختبار العصيب الذى مر به قد شل إرادته نهائياً ، فكف عن الكتابة حين ترك برنيڤال وذهب يتنقل بين أصدقائه بناپولى وسويسرا وجنوب فرنسا ثم هبط پاريس أخيراً وفيها حضرته الوفاة سنة ١٩٠٠ . مات وثنياً كما عاش وثنياً ، ولم يخنه مجونه حتى وهو يجود بأنفاسه الأخيرة .

٢

يعد أدب أوسكار وايلد ثورة على الأدب الڤكتورى ، اى ثورة على الأدب الإنجليزى فى عصر الملكة ڤكتوريا . ولم يكن وايلد الثائر الوحيد على ذلك الأدب ، ولكنه كان أنشط الثائرين وأقواهم شخصية وأكثرهم جلجلة لأن سلاحه كان الهجاء . وقد هجا وايلد القرن التاسع عشر ، وأفكاره ونظمه ورجالاته أمر الهجاء ، وبذر بذور الشك فى سلامة المجتمع الڤكتورى فمهد بذلك

لأدب جديد لا أثر فيه لفلسفة القرن التاسع عشر . ومع أن وايلد لم يترك أثراً ملحوظاً فى أحد من كبار الكتاب المحدثين اللهم إلا أولدس هكسلى فقد لعب دوره التاريخى الأوهو تحطيم الأصنام القديمة وتهيئة الجو للمعبودات الجديدة ، معبودات القرن العشرين ، وليس هذا بالعمل الهين .

كان العصر الفكتورى فى إنجلترا عصر رخاء ، ولكن أقرب إلى التعبير العلمى أن يقال أن حضارة القرن التاسع عشر كانت حضارة البورچوازية ، حضارة الطبقة المتوسطة ، كما كانت حضارة القرن الثامن عشر حضارة الارستقراطية ، حضارة الأشراف . وقد بدأ القرن بالبورچوازية الثائرة المكافحة صاحبة المثل العليا الداعية إلى تكبيل الملكيات المستبدة وإلغاء امتيازات الأشراف وتحرير العبيد ، المطالبة بالتصويت العام والتعليم العام وتكافؤ الفرص وبقية حقوق الإنسان ، المنادية بالحرية والأخاء والمساواة كما كان يقول الفرنسيون ، وانتهى القرن بالبورچوازية المنتصرة المستقرة الراضية التى تنشد الهدوء وتكره كل تغيير اجتماعى ، البورچوازية الغنية صاحبة الامبراطوريات التى لا تغرب عن أملاكها الشمس ، الباطشة بالحركات العمالية المناهضة للتصويت العام والتعليم العام وتكافؤ الفرص المصادرة لحقوق الإنسان الحانثة بعهود الحرية والإخاء والمساواة . أما شاعر البورچوازية الساخطة فقد كان شلى وأما شاعر البورچوازية الراضية فقد كان تينسون .

وقد ظلت البورچوازية ساخطة حتى تم لها النصر الأخير على الأرستقراطية وتمت لها السيادة السياسية والاقتصادية داخل انجلترا وخارجها ولم تكن تلك السيادة لتتم لها فى القرن التاسع عشر لولا أنها استحدثت فى القرن الثامن عشر انقلاباً فى وسائل الانتاج خطير الشأن هو الانقلاب الصناعى . فما أن جاء عصر الملكة فكتوريا حتى كان الانتاج الآلى قد بلغ حداً عظيما من الوفرة والاتقان . وكان لا بد للانتاج الآلى الضخم من أسواق ، أسواق للخامات وأسواق للاستهلاك ، فكان الاستعمار . ولم تولد الطبقة البورچوازية بالانقلاب الصناعى وحده ، فقد كانت فى أوربا طبقة بورچوازية متاجرة قبل أن توجد الطبقة البورچوازية الصانعة ، ولكن التقدم الآلى العظيم هو الذى ضاعف حيويتها وأنضج فلسفتها وأثبت أهليتها للحكم وإدارة البلاد .

فالعصر الفكتورى إذاً كان عصر الآلة والانتاج الضخم والرخاء والتمدد

الاستعمارى . وقد كانت الانسانية ترجو من وراء الانتاج الآلى خيراً كثيراً فوجد بعض المفكرين أن هذا النصر المادى العظيم يحقق لها الخير الذى ترجو وبشروا بأن غاية النشاط الاجتماعى هى « التقدم » وآمنوا بأن الانسانية قد « تقدمت » فعلا فى ظل الملكة فكتوريا ! وكان تنسيون شاعر الملكة إمام المعبرين عن هذه الفلسفة .

ولكن فريقاً آخر من المفكرين لم ير فى الحضارة الآلية والتوسع الاستعمارى والرخاء المادى إلا نذيراً بانهيار عظيم يوشك أن يعصف بكل ما تعتز به الإنسانية من مثاليات . وقالوا بأن روح الإنسان فى خطر لأن الآلة تحكمه وأن الفردية فى خطر لأن الآلة تصب الأفراد فى قوالب متشابهة كما تصب المعادن فى قوالب متشابهة . وأن المجتمع فى خطر لأن الفردية تختفى ، ودعوا إلى تحطيم الآلة والعودة إلى العمل اليدوى ونسجوا جواً من سحر الخيال حول المدنيات الغابرة التى سبقت الانقلاب الصناعى .

فمنهم من دعا للرجوع إلى العصور الوسطى الرسام مادوكس فورد والرسام الشاعر روزيتى والشاعر وليم موريس والناقد جون رسكين وأرّخوا انهيار القيم العليا بظهور رافائيل قطب حركة النهضة الأوربية وكتبوا عن الفرسان والحب الروحى ومجدوا الفن القوطى الذى تجسدت فيه آلام المسيح والزجاج الملون فى الكاتدرائيات الأثرية وتكتلك بعضهم قليلا أو كثيراً .

ومنهم من دعا للرجوع إلى حضارة هيلاس ، حضارة اليونان ، ونادى بالوثنية الفنية على الأقل كوولتر باتر وأوسكار وإيلد وجورج مور وماكس بيربوم وليونيل جونسون وإرنست داوسون الخ ولقبوا بالهلينيين واصطنعوا حركة لعبادة الجمال وعبادة الحس على غرار الإغريق ، ومجد بعضهم المجتمع الأثينى الذى كان الفرد فيه حراً من أكثر القيود الخارجية ودعوا إلى إحياء الروح اليونانية التى كانت تحرص على تقديس الحواس حرصها على تقديس العقل ، وزعموا أن فى الشخصية جانباً اجتماعياً يتكون عن طريق التقليد وتوارث اختبار الغير وجانباً فردياً يتكون عن طريق الاختبار المباشر الذى يصل الانسان بالخارج رأساً دون حاجة إلى وساطة الآخرين وحكموا بأن الأول زائف لا نفع فيه وأن الثانى هو أساس الفن العالى والعلم العالى وسائر القيم الانسانية العليا ، وجروا وراء الاختبار المباشر وتقديس الحواس حتى عرف أكثرهم بين الناس بالإباحيه

والبوهيمية والانحراف . وهذه عبادة الجمال التى كان أوسكار وايلد رائدها وهذه حركة نهاية القرن .

وهى كما ترى حركة بورچوازية رغم ثورتها على البورچوازية ، وهى بورچوازية لأنها ظهرت لتنعى ذبول الفردية ، وتتهم الآلة بأنها علة ضياع الشخصية فى الناس وفى إنتاجهم وتقرن بين الفن والفردية ، وتندب الزمن الخالى أيام أن كان النجار فناناً ذا أسلوب يصنع الموائد على طراز وصانع الأحذية وصانع الساعات وصانع النسيج فنانين يضعون شخصيتهم فيما ينتجون .

لقد كانت البورچوازية ايام كفاحها مع الأرستقراطية ثائرة متحررة من القيود العقلية والقيود الأخلاقية الموروثة تطالب المجتمع بأن يثور على هذه القيود وأن يتحرر منها كما نعرف من فلسفة قادتها المفكرين أشباه روسو وشلى وبيرون . فلما تمت لها الغلبة فى عهد ڤكتوريا بفضل تمام الانقلاب الصناعى أصبحت طبقة محافظة حريصة على تقاليدها متزمتة فى قوانينها الأخلاقية جادة فى عملها متمسكة بالفضائل إلى حد مرهق منصرفة إلى جمع المال و « التقدم » تؤمن بالعلم وحده لتحقيق هذا التقدم كما نعرف من فلسفة شاعرها الأول تنيسون ولكن وايلد واصحابه أعلنوا حول عام ١٨٩٠ أن القرن التاسع عشر يموت وأن المبادىء البورچوازية الصارمة تموت معه . وسعوا إلى التجديد لاحباً فى التجديد وحده ولكن ليسخروا من البوچوازية المحافظة ، فابتكروا الملابس الغريبة الزاهية والأدب الغريب الزاهى ، ومزقوا التقاليد حيث مجدها الڤكتوريون وأسرفوا حيث اقتصدوا وانصرفوا إلى انتهاب لذات الحياة حيث تشددوا فى الفضيلة وهزءوا من نظرية التقدم وعرّضوا بالعلم وقالوا بأن الفن طريق الخلاص .

قال وايلد وزملاؤه إن المجتمع ما زال بالعلم يحميه حتى حرره من سلطان الكنيسة وضغط الجماهير ووقى العلماء تدخل السلطات باسم الأخلاق أو باسم العقائد العامة ، وطالبوا المجتمع أن يفعل بالفن ما فعله بالعلم وظهرت بينهم نظرية الفن للفن وأنكروا أن يتقيد الفنان بقواعد الأخلاق او أن يوضع الفن فى خدمة لمجتمع . وهذا أوضح مظهر للروح البورچوازية الفردية التى تميزت بها حركة نهاية القرن .

وقد أحست انجلترا فى عصر ڤكتوريا بأنها تستطيع أن تعيش بمعزل عن القارة الأوروبية مكتفية بنفسها وركدت تجارة الفكر بينها وبين فرنسا وسائر

البلدان ولم يبق منها إلا القليل كمحاولة الشاعر سوينبرن أن يتأثر خطى بودلير ومحاولة القصصى هنرى چيمس أن يكتب فلوبير بالانجليزية . ولكن سيادة انجلترا الاقتصادية بدأت تتزعزع فى نهاية القرن وظهرت فيها بوادر زوال النعمة باشتداد المنافسة الخارجية ، فليس غريباً إذا أن يزول عن الانجليز صلفهم الأول وان ينمو فى انجلترا إحساس بالحاجة إلى التعامل الثقافى مع دول القارة فتخرج من عزلتها وتقبل على إنتاج الفرنسيين ، والروس ، والألمان . ومن يدرس حركة نهاية القرن يجد أن جورج مور ، وأوسكار وايلد ، والرسام بيردسلى وصغار مدرسة « المنحطين » كما يلقبهم بعض النقاد قد التمسوا وجيهم الفنى فى القارة عامة وفى باريس خاصة .

ولقد تتمسح مدرسة ماقبل رفائيل ومدرسة عبادة الجمال فى الاشتراكية ولكن أتباع هاتين المدرستين فى حقيقتهم مفكرون فرديون بورچوازيون لا صلة لهم بالحركة الاشتراكية رغم أن وليم موريس قد دعا لنظام الملكية العامة وصور للناس الحياة فى المدينة الفاضلة تصويراً جميلا ورغم أن أوسكار وايلد قد قطع للناس بأن الإنسانية لن تنتصر على أوجاعها المادية والروحية إلا باختفاء الملكية الفردية وآية ذلك البغض الشديد الذى حمله هؤلاء وأولئك للآلة ، والاشتراكية العالية ، الاشتراكية بمعناها العلمى المنظم تمجد الآلة وتعدها الوسيلة الوحيدة لحل مشكلة الإنتاج وإسعاد الملايين وتؤرخ التاريخ الحديث بالانقلاب الصناعى .

فاشتراكية وايلد ومن عاصروه إذاً اشتراكية خيالية أو اشتراكية طوبية كما قد يسميها فردريك إنجلز أحد مؤسسى الفلسفة الاشتراكية . وثورة وايلد على البورچوازية الصناعية هى ثورة المفكر الفردى على المموّل الفردى ، ثورة الأديب الذى زاحمه الصحفى فى السوق فكاد أن يخرجه من الميدان ، ثورة الرسام على المصور الذى سد عليه سبل العيش ، وجعل المجتمع يهمله ويهمل بضاعته . واشتراكية البورچوازيين أشبه بنعيم لايسعد فيه إلا الفوضويون .

٣

كان وايلد الهجاء الأول فى العصر الڤكتورى ، ولكنه لم يتعرض قط فى هجائه للأشخاص كما كان يفعل الكساندر پوپ ومعاصروه من هجائى القرن

الثامن عشر . بل هجا المجتمع ونظمه الأخلاقية والسياسية والاقتصادية وهجا أساليب الفن المعروفة فى عصره ، وتجاوز هجاء المجتمع أحياناً إلى هجاء الطبيعة البشرية ، ولكن يبدو أن شكه فى سلامة الطبيعة البشرية شك عارض لاشك أصيل .

ولم يتبع وايلد فى كتاباته الفنية طريقة الوصف والنقد كما كان يفعل دكنز مثلا . بل لجأ إلى السخرية والتعريض ، وله فيهما أفانين مختلفة وقواعد يمكن تبويبها ولكنها جميعاً صادرة عن سجية نادرة شحذها طول المران مرسلة إرسالا لأنها جزء من طبعه الهازل الذى لايغضب للعيوب ولا يسكت عليها . بل يفضحها بالنكتة ويشهر بها بالدعابة . وهو يكره أن يمسك عصا المعلم لأن المعلمين فى نظره قوم مملون ، والملل آفة الفن وآفة الحياة جميعاً . ولقد تقسو سخريته بالأشياء حتى تحطم الأشياء ولكنها لا تبلغ أبداً مبلغ الثورة ذات البرنامج . وهو يستنبط النكتة آنا باستخدام المفارقات وآنا باستخدام النقائض ، وآنا باستخدام ما لاينتظر ، وآنا بالعبارة الطلية المبلورة . والحدود بين الجد والهزل عنده غير واضحة ، لأنه لم يكن مجرد كاتب ماجن عابث ولم يكن مصلحاً إجتماعياً عابس الوجه يحب الاستشهاد ، بل كان بين بين . لهذا تقرأ أوسكار وايلد فتضحك ، وبعد أن تفرغ من الضحك تتبين أن فكاهته تثير فيك أكثر من الضحك ، تثير فيك التأمل وتدعوك إلى الشك فى سلامة الأوضاع الاجتماعية القائمة على التزمت الأخلاق والفكرى . كذلك كان يمزج الخيال بالواقع فبعض قصصه شبيه بالأساطير وإن كان مدلولها إنسانياً أو اجتماعياً .

ولقد ترك أوسكار وايلد فى برنارد شو أثراً واضحاً من حيث توجيه النكتة وطريقتها ، ولكن الفرق بينهما عظيم . فشو كاتب دائم الجد رغم مظهره الساخر ، تلمس جده فى كل لحظة من لحظات مرحه ، وشو كاتب « يؤمن » برسالة ويستخدم الفكاهة للدعوة إلى فلسفته الاجتماعية . أما وايلد فجاد ولاه معاً ، يستمتع بالنكتة حتى ولو كانت على حسابه أو حساب مبادئه ، ووايلد لا «يؤمن» برسالة لأن الإيمان عنده تعصب ، والتعصب انغماس فى تيار الحياة وهو يؤثر أن يقف من الحياة موقف المستعرض لمواكبها .

وملكة وايلد الأولى فى الحوار وهذا يفسر اتجاهه إلى إنشاء الكوميديات

وقلة إنتاجه فى أشكال الأدب الأخرى . وطلاوة حواره هذه هى التى جعلت منه المحدث الأول فى جيله . وطابعه الأول جمال الصياغة وولتر پاتر الذى علمه فى شبابه كيف يتعبد لجمال الحياة علمه كذلك كيف يتعبد لجمال العبارة .

أما عيوبه فكثيرة منها عجزه عن فهم القلب الإنسانى . ولقد كان أوسكار وايلد حقاً سيّد من هجا سلوك الناس وأفكارهم الاجتماعية ، ولا بأس من أن يقال إنه فضح كذلك بعض غرائز الإنسان التى تتخذ صورة المبادئ العالية ، ولكنه لم ير من الإنسانية إلا جوانبها المؤلمة وعوّض نفسه عن ضياع ثقته فى خير الحياة بحبه لجمال الحياة . وقصوره عن النفاذ إلى مكنونات الطبيعة البشرية ظاهرة نامسها فى انصرافه عن وصف العواطف البشرية العميقة وتركيز انتباهه على سلوك الناس وهفوات الحياة الاجتماعية . والمواضع التى يتعرض فيها وايلد لوصف العواطف البشرية العميقة آية فى الرداءة إذا هى قيست ببقية إنتاجه .

ولا شك أن وايلد كان يكرر بعض نكاته فى كتاباته المختلفة ولكن هذه زلة تغتفر فى رجل أخذ على عاتقه إضحاك الناس طول حياته .

ولقد اتهم وايلد بالسطحية ولعل منشأ ذلك أنه كان يصرّ على الانفصال من الحياة ومشاهدتها عن بعد كالمتفرج ويرفض الاندماج فيها . اتهم بأنه يخرج عن طبيعته فى كل ما يفعل وما يكتب ، وأنه ما فنئ يتكلف الموقف والمبادئ حتى صار الكلف طبيعة فيه ، ولكن هذا مفتاح شخصية أوسكار وايلد ومفتاح أدبه ، وقد عرفهما فى نفسه ومجدهما تمجيداً ، فجعل من التكلف فلسفة تدرس وفناً يتعب الناس فى إتقانه .

لويس عوض